

■ ختام ■

قضايا معاصرة بعد صحبة مباركة

في هذه اللحظات التي أطوى فيها صفحات أخيرة، وأضع لمسات نهائية، وأجمع مجلدات وكتب وقصاصات التي إليها يرجع الفضل كله في إتمام هذا الكتاب.. تمهيداً لدفعه إلى المطبعة.. أحس أنني أودع أساتذة لى وللجيل كله، أسهموا بدم القلب، ووهج الفكر، وصلابة الفولاذ في تكوين العقل المصرى الحديث.. وهو في سبيل وعيه ويقظته.. وأضاءوا صدر الإسلام، وما بعده من عصور، بلوامع أفكارهم المجددة.

ومع أنني أدرك الآن أنني أودع هذا الرعيل الفذ من الرواد.. إلا أنني لا أشك لحظة في أنني قد اقتربت من فكرهم، فعشت معهم ولهم أياماً وليالي. وكم كانت صحبتهم عظيمة مباركة.. ضاعفت من تعلقى بهم وحبى لهم. لذلك أجد نفسى أناجيهم واحداً واحداً. وكأنى أدير معهم وعنهم ولهم حديثاً.. تطل منه الكثير من القضايا.. التي تشغل فكرنا العربى الإسلامى فى الآونة الأخيرة وأبدأ بالدكتور طه حسين. وقد يغفر لى أنداده من جيل الأساتذة الأفاضل أن أبدأ به.. إذ كنت قد شرفت مراراً بالحديث معه فى حياته أكثر من غيره.

طه حسين.. يا من وفدت إلى دنيا الأدب والفكر فى بدايات هذا القرن، واستحدثت نظرية جديدة فى تقييم تراثنا العربى القديم، فغضب عليك قوم، ورضى عنك آخرون. ولكن يشهد الجميع أنك حركت الحياة الادبية من سكون غير مقصود. كما يشهد الجميع أيضاً أنك لم تنس يوماً أصالة اللغة العربية ولا الثقافة العربية ولا الحضارة العربية، وإن أكثر ما فزعت منه هو الانصراف عن هذه الأصالة. وكم نبهت فى أعمالك ومواقفك وأحاديثك إلى تلاميذك لضرورة التمسك بهذه الأصالة. وقد كان ضمن التمسك بهذه الأصالة.. الدعوة إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى بشكل يتيح للقارئ العربى المسلم المعاصر.. أن

يعرف أسرار عظمة هذا التاريخ . المتوارية وراء المتون ومتن المتون . ألسنت أنت القائل عن فكرنا القديم: «مقومٌ لشخصيتنا، محققٌ لقوميتنا، عاصمٌ لنا من الفناء في الأجنبي، معينٌ لنا على أن نعرف أنفسنا . . .؟!» وألسنت أنت القائل أيضاً عن الحضارة الأوربية الحديثة: «والذين يظنون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا خيراً خالصاً يخطئون، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا شراً غير قليل؟!» وألسنت أنت القائل عن أدبنا القديم: «ليس الأدب العربي أقل حياة من الآداب الأجنبية مهما تكن، وليس الأدب العربي أقل صلاحاً للبقاء واستحقاقاً للعناية الخصبة والدرس المنتج من الآداب الأجنبية مهما تكن، وكل عيب الأدب العربي أنه كمجهول لا يحسنه أصحابه ولا تعمقونه»؟! .

أبعد ذلك يأتي من يتهمك في لسانك العربي وثقافتك العربية وحضارتك العربية؟! .



وأنت يا عملاق فكرنا العربي . يا من تعرفك لغة الضاد بهذه الصفة بلا منازع . . فحين يذكر العملاق لا بد أن نتذكر العقاد . . صفة لم يمنحها لك حاكم أو سلطان، وإنما منحها لك جهدك وعملك . يا من عشت فقيراً وامت فقيراً، ولكن كنت أغنى الأغنياء . . بغنى النفس ورفعة الكرامة . يا من تركت للفكر العربي كتباً تزيد كل يوم لتغطي كل جوانب المعرفة . . وكأنك تأخذ بأيدينا حتى بعد أن فارقت الحياة . . أسألك وكثيراً ما كان قراؤك يسألونك . . نعم . . أسألك فأنت الغارب عنا بجسدك، الحاضر بيننا بفكرك: هل صحيح أن أدبك ونقدك كان يبعث على الضحك كما يحلو لبعض من يكتب ويسجل صفحات من تاريخنا الثقافي في قاعات الجامعة؟! وهل صحيح أنك انتهيت في نهاية ثلاثينيات هذا القرن واستخرجوا شهادة وفاتك، عندما بدأت تفكر في التاريخ للإسلام، كما يحلو لبعض آخر أن يكتب في صحافتنا؟! وهل صحيح أنك لم تكن مفكراً عملاقاً، وإنما كنت فتى أسوانياً مشاغباً، كما يحلو لفريق ثالث أن يسجل من خارج الحدود، سواء في الجامعة أو في الصحافة؟! .

هل، وهل، وهل . . . علامات استفهام كثيرة . . . لماذا ترانا نقلق بها خلودك
السرمدى . وفكرك باقٍ وقادرٍ على أن يرد . . . ليقول للجميع أنك على الرغم منى
ومنهم عبقرية خالدة على مر الزمن . . . تستطيع بما تركت من آثار أدبية وفكرية أن
تدفع عنك هذه الأباطيل والافتراءات .



وأنت يا أحمد أمين . . . يامن كنت تحمل بين جنبيك نفساً ثائرة، وإرادة
متحررة، وفؤاداً ذكياً متوهجاً، وعقلاً متحفزاً للانطلاق والثوب . . . أنت يا عقل
الحياة الإسلامية وفيلسوفها وحكيمها . . . أنت يا من أرخت للعقل الإسلامى فى
فجره وضحاياه وظهره . . . فى مجلدات كبار هى مراجع لكل من أضناه البحث عن
هذا العقل فى نشوئه ونضوجه وارتقائه .

إن فكرك الشامخ لن يبالى بادعاءات بعضٍ ممن يرى أن مواردك فى الحكم
على العقلية العربية فى العصر الجاهلى وما بعدها، إنما صدرت بها عن المستشرقين
من أمثال «أولبرى» فى كتابه «بلاد العرب قبل محمد»، فالذى يقرأ فكره ويقارنه
بفكر هذا المستشرق، يجد تبايناً واختلافاً ويجد دقة وسعة فى الحكم أبعد بكثير
من هذا المستشرق أو غيره، والاكثَر يجد أسلوبك فى تاريخ هذه الحياة العقلية
فى الإسلام نموذجاً هادياً لكل باحث متنور ينظر بالعقل إلى العقل الإسلامى .

إن انتشار كتبك الإسلامية على هذا النحو، أثبت أن الفكرة العميقة لا تتعين
أن تكون ملفوفة فى رداء من الغموض، وأن دقة التفكير لا تتعارض مع رهافة
الحس وعمق الشعور . . . هذا أنت وهذا أسلوبك وتلك فلسفتك .



وأنت يا مؤرخ «حياة محمد» (صلوات الله وسلامه عليه) . . . أنت يا من
بدأت حياتك العملية محامياً تدافع عن حق تراه مشروعاً، وبدأت حياتك الفكرية
قصاصاً يعرض للمشكلة فى حياة الإنسان ويبحث عن الحل، وقد يقتضيه الأمر
فى كثير من الاحوال أن يدافع عن حق هذا الإنسان إذا كان مهضوماً . . . أنت يا

أستاذنا الدكتور محمد حسين هيكل . . هل كان من العسير عليك أن تقتحم ميدان السيرة التاريخية مدافعاً عن الإسلام ونيه الكريم ورجاله العظام ومبادئه ونظمه، وأن تضيف مسحة فنية تحيلها إلى عمل روائي لا تخلو صفحاته من أعمال للفكر وتحريك للعقل؟! هل كان من العسير عليك ذلك دون التأثير - كما يدعى بعضهم - بروايات الغرب . . وأنت في الأصل ما كتبت إلا لكي تدحض هذه الروايات وتسخر من سذاجتها؟! هل كان من العسير عليك أن يكون أسلوبك سلساً ممتعاً وليس جافاً مستعصياً - كما يدعى بعضٌ آخر مستنداً إلى قصة حدثت بينك وبين طه حسين ولطفى السيد - حول أسلوبك في بدايات حياتك الفكرية ورويتها أنت على سبيل التندر والصدق مع النفس؟! وهل كان من العسير علينا نحن المتلقين لفكرك وأدبك ألا نعطيك حقلك، فلا يعرف متخصصو أدبك وفكرك متى بدأت تكتب في الإسلام، ويجعلون العقد - الذي بدأ يكتب الإسلاميات في الأربعينيات من هذا القرن - يسبقك مع أنك بدأت في الثلاثينيات؟! هل كان من العسير علينا أن نعطيك حقلك لا أكثر ولا أقل؟!!



وأنت يا جاحظ القرن العشرين - هل تعرفونه؟! . . إنه مصطفى صادق الرافعي - أنت يا من كتبت للعربية بلسان عربي مبين تفكيراً وأسلوباً. يا من عدك مؤيدوك ومعارضوك على السواء: حلقة من حلقات تطور الأدب العربي الحديث . . فأنت تمثل ذلك التيار العربي في نصاعته وأصالته. نعم . . أنت يا من عدك نقادك ومؤرخوك تياراً كان لا بد من وجوده لإحداث هذا التوازن في الثقافة العربية .

لقد اختلفت الآراء في نثرك وشعرك وفكرك، وقامت بسبب ذلك معارك ومساجلات لم تنته بعد . . إلا أنك على الرغم من هذه الاختلافات التي تترجم أحياناً إلى صفحات وكتب لم تنل حقلك في الدراسة والبحث . هل كان ذلك بسبب خصوصتك لعملاقين كبيرين هما طه حسين والعقاد في حياتك؟! وهل

تلحقك هذه الخصومة بعد موتك فتصيبك بنوع من الجحود والأذى، حيث كان بعضهم يهاجمونك إرضاءً للعملاقين الكبيرين في حياتهما، ويتجاهلونك إحياءً لذكراهما بعد مماتهما؟ ولماذا لا يبحث هؤلاء وهؤلاء عن جوانب فيها تقدير لك حتى من العملاقين ذاتهما. بوصفهما كانا أكثر الناس معرفة لك ولفكرك؟! إن ما حدث من معارك وخصومات كان أولى أن يثرى أدبنا ويغنيه، لا أن يتنكر لرجاله وأفذاذه ويتجاهلهم!



وأنت يا سليل إحدى الأسر المصرية فى الجاه والسلطان والشرء . . يا من كنت صادقاً مع نفسك ومع قرائك حيث كتبت كتاباً هو «الإسلام وأصول الحكم»، وكنت صادقاً أيضاً مع نفسك حين لم توافق على إعادة طباعته فى حياتك . وفضلت إن حدث ذلك فليكن بعد أن تفارق روحك هذه الحياة . أنت أيها الشيخ المتنور على عبد الرازق . . كم كنت فى مقصدك صادقاً، وعلى مبدئك صامداً، وعن أفكارك مدافعاً . . وكم كنت عظيماً فى كل ذلك، الأمر الذى يجعل التاريخ يفض الطرف حتى عن بعض هذه الهنات التى جاءت - بقصد أو بغير قصد، منك أو بتأثير من غيرك - على صفحات كتابك «الإسلام وأصول الحكم»، وأن يفض هذا التاريخ الطرف أيضاً عن هذه الكتابات التى حملت فكرتك فى الكتاب بأكثر مما تحتمل، فضاغت - عن غير قصد - من إداثك . حين جعلت السلاح الذى تشهره فى وجه الآخرين سلاحاً يهددك أنت أيها الشيخ الذى ظل عشر سنوات حتى وفاته صامتاً لا يتكلم عن هذا الكتاب . .

لك التقدير من أجيال تقرأك الآن، وترى فى فكرك مجالاً خصباً للمناقشة حتى بعد مئات السنين .



وأنت يا من تحيا بيننا بجسدك وفكرك . . يا من أتيح لنا أن نقرب من رحاب فكرك وعالمك فى مبنى واحد من الأهرام . . يا من تشيع الفكر بين تلاميذك

ومريدك الذين يتوافدون عليك صباح كل يوم فى الطابق السادس من مبنى الأهرام. إن هذا الطابق ينتسب إليك، مع أنك لا تحتل فيه أكثر من غرفة متواضعة بين عشرات غرفه. لكن هذه الغرفة هى المقصد، وهى الهدف، وهى منبع الفكر والأدب والفن. . وهى إطلالة حضارية فى هذا المبنى. ففى هذه الغرفة يمر التاريخ. . وحين يمر التاريخ يترك بصماته، وكم تكون هذه البصمات ثابتة لا تغيرها الأيام والليالى! . . أنت يا حكيم مصر المعاصر توفيق الحكيم. . كم كنت عظيمًا فى دفاعك المجيد عن دينك الإسلامى، على الرغم من سهام الهجوم التى تأتىك عن غير تبصر. . فلم يغريك قربك من الأجنبى - حياته ولغته - أن تنسى دفاعك عن دينك بنفس السلاح والأسلوب الذى استخدمه الأجنبى. . فكثبت وحمّلت أدبك وفنك مسحة إسلامية مؤمنة. . وكنت من المتقدمين الذين أرخوا للرسول الكريم بأسلوب يمتزج فيه الفكر والعاطفة.



وأنت يا شيخ الفلاسفة كم أحبك ويحبك عشرات الآلاف من تلاميذك فى الجامعة. . أساتذة كانوا أو طلاباً. . نحبك فى غضبك علينا الذى يأتينا دون قسوة أو أذى. ونحبك فى صرامتك العلمية التى اكتشفنا - على الرغم من معاناة بعضنا - أنها تصوغ أفكارنا، ونحبك حين كنت تجلّى لنا صفحات من تفكيرنا الإسلامى القديم. فتقدمها لنا فى نظريات وقواعد وأسس. . تبرز نظريات الغرب وقواعده وأسس تفكيره. وتكشف لنا كم كان كبار مفكرى الغرب عيالاً على المفكرين الأوائل من المسلمين.

أنت يا شيخنا إبراهيم مذكور كم يضيق الباحث طول بحثه عن إنجازاتك. . هل يبحث عنها داخل الجامعة؟! هل يبحث عنها تحت قبة البرلمان؟! هل يبحث عنها فى عدد من السنين تجاوز الأربعين سنة قضيتها بين جدران مجمع الخالدين باحثاً وكاتباً وأميناً ورئيساً للمجمع؟! هل يبحث عنك فى بحار ليس لها ضفاف من الإنجازات هنا فى مصر أو فى العالم العربى أو فى الهيئات العلمية العالمية؟!



وأنت يا أبو العلماء . . يا من سخرت حياتك لتبسيط المادة العلمية وتأديتها .
لكى تخاطب القلب كما تخاطب العقل . أنت يا من كان يحلو لبعضهم من
الأدباء أن ينادونك بالقول عالم الأدباء، ويحلو لبعضهم الآخر من العلماء أن
ينادونك بأديب العلماء . أنت يا كل هذا! هل تبالي بتجاهل أهل العلم وأهل
الأدب لآثارك الأدبية والعلمية؟! . . فحتى لحظات كتابة هذه السطور، لم نلمح
مؤلفاً واحداً يسجل إنجازاتك فى ميدان العلم وميدان الأدب! . . ولقد نادى
كاتب هذه السطور، الذى أتاحت له فرصة الاقتراب من فكرك وعالمك يوماً،
حين كنت تقضى إجازتك السنوية فى بلدك مصر - وبالتحديد فى ضاحية المعادى
- الذى شرف بأن تجمععه وإياك شارع واحد . . لقد نادى على صفحات الأهرام
فى ذكراك الرابعة داعياً هؤلاء الأدباء والعلماء أن هبوا وتذكروا أديب العلماء
وعالم الأدباء .

لقد فعلت عظيماً حين قربت مفهوم الإسلام إلى العقول قبل القلوب،
وناديت بفكرة «آيات الله متمثلة فى خلقه»، فكنت أنت رائداً فيما نعرفه اليوم
بالإيمان العلمى، والذى كلما ذكرناه تذكرنا على الفور الدكتور أحمد زكى .



وأنت يا صاحب المدرسة الأدبية التى كان لها عظيم الفضل فى توجيه حياتنا
العلمية داخل الجامعة كأستاذة، وحياتنا الثقافية خارج الجامعة . . كجماعة الأمناء
التي يحمل أغلبها القلم اليوم . . أنت يا من أتذكر حديث الرسول الكريم كلما
قرأتك . . هذا الحديث الذى يذهب إلى أنه سيأتى فى الأمة الإسلامية مجدداً
كل مائة عام يجدد تفكيرها الإسلامى، ويقف بالمرصاد مدافعاً عن هذا الدين
الحنيف الذى قامت على أكتافه حضارة أنارت أوروبا فى أحلك عصورها ظلاماً .
لقد ناديت بالتجديد من داخل الإسلام نفسه وليس دخيلاً عليه . . تجديداً يكون
هدية القرآن الكريم والسنة الشريفة، واجتهاد السلف الصالح . . حين نتذكر كل
ذلك فلا بد وأن نذكر الأستاذ أمين الخولى . . رحمه الله .



وإذا كنا نذكر كبارنا الأفاضل أولئك الذين جحدنا فضلهم وتنكرنا لإنجازاتهم . .
فعلينا أن نذكر شيخ المؤرخين الإسلاميين، الأستاذ عبد الحميد العبادي . . يالك
من أستاذ عظيم تركت بصماتك - على الرغم من كل شيء - على أساتذة للتاريخ
الإسلامي نراهم وقد اعترفوا بفضلك في سطور قليلة . . ذرّاً للرماد في العيون،
وحفاظاً على الأمانة العلمية، واعترافاً بحق الأساتذة الرواد . .

يا لك من نمط فريد من أساتذة الزمان . لم تترك آثاراً علمية كثيرة . . بل
تركت عقولاً هنا في مصر وفي العالم العربي، تدين لك ولأسلوبك ولمنهجك
بالفضل .

يا لك من أستاذ صادق . . وفيت بما عاهدت عليه زميليك طه حسين وأحمد
أمين . . في التأريخ للحياة السياسية في الإسلام . . فظلتت تعمل من أجل الوفاء
بهذا الاتفاق لآخر يوم في حياتك، وفي كل المواقع التي عملت بها . . وعلى
الرغم من ذلك لا تجد من يذكرك، ويذكر علمك!



وقبل أن نودع كبارنا لابد وأن نتوقف عند حارس الثقافة العربية الإسلامية . .
العلامة محمود محمد شاكر - أطال الله في عمره - إن شأن هذا العلامة في
حياتنا اليوم هو نفس شأن الراحل العظيم مصطفى صادق الرافعي، مع اختلاف
بسيط هو أن الأستاذ شاكر درس الفكر الغربي وخبره واتخذ منه موقفاً في أنه
حلقة من حلقات تطور الثقافة العربية الإسلامية، تمثل تيارها الأصيل، وهو تيار
لابد من وجوده حتى يحدث ذلك التوازن بين الثقافة العربية الإسلامية الأصيلية،
والتيارات الثقافية الأجنبية الدخيلة .

أنت أيها العلامة العظيم . . لقد فرضت على حياتك عزلة أو فرضها عليك
بعضهم استمرت قرابة الأربعين عاماً . . كنت أنت صانع هذه العزلة أو غيرك .
ولكن حين فككت بعضاً من قيود هذه العزلة . . بإتاحة الفرصة للمحات من
فكرك أن تخرج إلى النور . . كنت إماماً للأدباء وللمثقفين لا في مصر وحدها،

ولكن فى العالم العربى . وبدأ أبناء هذا الجيل الذى لم تتح له فرصة التعرف عليك . فى الإقبال على كتبك .. وكأنه يقبل على النفيس الأصيل فى ثقافتنا العربية الإسلامية .

بعد ذلك لتتوقف مع هذه القمم والأفكار الإسلامية من المصريين فى هذا الجزء .. مع وعد بقاء - بإذن الله - مرة ثانية، وفى جزء ثان مع قمم وأفكار إسلامية على مستوى العالم .. والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير .

